الفصل الأول

الشاعر والطاغية

- الملك عمرو بن هند -

فَلَيْتَ لَنَا مَكَانَ المَلكِ عَـــمْـــروٍ

رَغُـــوثَاً حَـــوْلَ قُـــبَّـــتِنَا تَخُـــورُ

«طرفة بن العبد»

مقدمة تاريخية موجزة :

تجمع المصادر التاريخية و الأدبية على أن الملك عمرو بن هند تولى حكم الحيرة في أواسط القرن السادس الميلادي[1]، بعد وفاة والده إثر المعركة التي خاضها ضد ملك الغساسنة الحارث بن جبلة الغساني سنة 554م . وعمرو بن هند هو عمرو بن المنذر بن امرئ القيس بن النعمان بن امرئ القيس[2]، وهند أمه، و هي هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر آكل المُرار[3] ، عمة امرئ القيس الشاعر الجاهلي المشهور[4]، و صاحبة دير هند الكبرى، الذي بنته، ونسب إليها، واقترن باسمها، جاء في معجم البكرى قوله: في صدر هيكله مكتوب[5] "بنت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر، الملكة بنت الأملاك، وأم الملك عمرو بن المنذر، أمة المسيح، وأم عبده ، و أمة عبده ، في زمن ملك الأملاك ، خسرو أنو شروان، و في زمن أفراييم الأسقف ، فالإله الذي بنت له هذا البيت يغفر خطيتها، ويترحم عليها وعلى ولدها ويقبل بهما، ويقومهما إلى إقامة الحق ويكون الإله معها و مع ولدها الدهر الداهر".

وينسب عمرو إلى أمه هند ليفرق بينه و بين أخيه عمرو بن أمامة، و كانت أعوام حكمه ستة عشر عاماً[6] .

وكان عمرو بن هند كما تذكر المصادر شديد البغي و الجور، محباً لقهر الناس و إذلالهم، شديد الملك و السلطان، عاتياً جباراً ، طاغيةً متشدداً ، بلغ الغاية من النزق و الجبروت ، لا يضحك و لا يبتسم، وكان من أشد ملوك المناذرة و أقواهم بأساً، وكانت العرب تهابه هيبةً شديدةً، لذا دانت له بالخضوع و الانقياد و الطاعة و الامتثال، و سمي مضرط الحجارة لشدة سلطانه و خشونة ملكه و اقتداره بنفسه[7]، و كان قسم دهره إلى يومين يوم بؤس و يوم نعيم، ولقب بالمحرق الثاني لأنه أحرق مئة من بني تميم في غزاة له[8]. وتفرد صاحب نقائض جرير والفرزدق فذكر أنه لقب كذلك بذي القرنين[9] .

و أنبه هنا على أنه ليس من غرض هذه الدراسة التأريخ للملك عمرو بن هند، و إنما غرضها مُنْصَبٌّ على تبيين صورة الملك كما رسمها شعراء العصر الجاهلي، ومحاولة كشف أبعادها في علاقاتها مع القبائل العربية، ولاسيما أن نفوذ هذا الملك الطاغية امتد داخل الجزيرة العربية حتى بلغ عمان واليمامة والبحرين، ودانت لسلطانه الكثير من القبائل العربية كأسد وعبد القيس وبني تميم و غيرهم، فعرف بملك العرب[10]، و قد صور الشاعر زهير بن أبي سلمى سعة ملكه و خضوع بني أسد له حين هجا الحارث بن ورقاء الصيداوي الذي كان قد استاق إبلاً لزهير فيها راعيه(يسار) ، يقول زهير[11] :

لئن حَلَلْتَ بِـجَـوٍّ في بني أَسَـدٍ في دين عـمـروٍ و حـالتْ بـيننا فَـدَكُ
ليـــأتينّك مِـنّي مَـنْطِقٌ قَـذعٌ باقٍ كـمـا دنّـسَ القُـبْطِيّـة الوَدَكُ

وبلغ من طاعة العرب له و خضوعهم لسلطانه ، ما كشف عنه المُمَزِق العبدي في قوله[12]:

وأنـتَ عـمـودُ الـدِّين مـهـمـا تَقُلْ نَقُلْ و مـهـمـا تَضَعْ مـن باطلٍ لا يُحَـقّق

و يكشف شعر للقيط بن زُرارة التميمي ـ و هو من أعظم سادات العرب[13] ـ مدى طاعتهم للملك و انقيادهم له وذلك قوله[14] :

فـــإنكَ لـو غَطَّيْـتَ أرجـاءَ هُـوَّةٍ مُـغَـمَّـسَـةٍ لا يُسْـتَـبَـانُ تُرابُـهـا
و ذلـك فـي ظلـمـاءَ ثـم دَعـوْتَنِي لجـئـتُ إليـهـا مـسْـرعـاً لا أَهابُـهـا

و كـان الملك عـمـرو بن هند يفـرض الإتاوات ، و تجـبى له الجـبـايات ، فـقـد بعث وائل بن صُرَيْم ساعياً له على بني تميم "فأخذ الإتاوة حتى استوفى ما عندهم" [15] و كان أحد أخوال الشـاعـر طرفـة بـن العبد من النَّمر بن قـاسط عـامـلاً للملك على جـبـاية مـا كـان للعـرب في البحرين[16] ، يقول الأعشى _في معرض حديثه عن الأمم البائدة والملوك الجبابرة الغابرين_ مصوراً سعة ملك عمرو بن هند ، و كثرة ما يجبى إليه من الأموال، و ما هو فيه من النعمة[17]:

كـمْ رأيْـنـا مـن أُنـاسٍ هَـــلَـكُـوا و رأيْـــنَا المرءَ عَـــمْـــراً بِطَلَحْ
آفَـــقـــاً يُجْـبَى إلـيـــه خَـــرْجُـــهُ كلّ مـــا بَـيْن عُـــمَـــانَ فَـــمَلَحْ

و يخال الشـاعر أَفْعَى بن جَنَابٍ ـ و قد لعبت به الخمر، و ملكته نشوتها ـ نفسه عمرو ابن هند في كبريائه و تيهه ، و سعة ملكه ووفرة ما يُجْبَى إليه من مال ، يقول[18]:

و لقـدْ شـربْتُ الخـمـرَ حـتّى خِلْتَنِي لمّا خَـرَجْـتُ أَجُـرُّ فَـضْلَ المِئْـزَرِ
قـابوسَ أو عـمـرَو بنَ هندٍ قـاعـداً يُجْـبـى له مـا دُون دَارة صَـرْصَـرِ

والملك عمرو بن هند هو الذي عقد حلف ذي المجاز بين قبيلتي بكر و تغلب، و أصلح بينهما بعد حرب البسوس ، و أخذ من كل منهما رُهُناً، ليكف بعضهم عن بعض[19] .

و قد كانت الحيرة في عهده حاضرة الملك ، تقصدها الوفود ،و يؤمها الشعراء ، فالملك يكرم الوفود، و يجزل عطاياهم ، و يحتفي بالشعراء و يهش للشعر ، فقد وفد إلى بلاطه في الحيرة من الشعراء طرفة بن العبد، و المُتَلَمِّسُ الضُّبَعِيُّ، و كانا ينادمانه في مجلسه، و يحتظيان به[20]، و حاتم الطائي الذي تشفع لديه في أسرى قومه، و كان عددهم سبعين رجلاً،

وفي ابن خالته قيس بن جَحْدَر، و في ذلك يقول حاتم[21]:

فَكَكْتَ عَـــدِيًّا كلَّهـــا من إِســـارِها فـأَنْعِمْ و شَـفِّـــعْنِي بِقَـيْسِ بنِ جَـحْـدَرِ
أبوه أبي ، و الأمـــهـــات أمـــهـــاتنا فـأَنْعِمْ ، فَدَتْكَ اليومَ نَفْسِي و مَـعْشَرِي

وكان الحارث بن التوءم اليشكري يجالسه و ينادمه[22] ،و بلغ من إعجاب الملك بالشعر و استحسانه له أن الحارث بن حلزة اليشكري ـ و كان أبرص ـ لما أنشده قصيدته :

اَذَنَتْنَا بِبَـــيْنِهـــا أَسْـــمـــــاء رُبّ ثَـــاو يُمَلُّ منـه الـــثّـــــواء

أمر أن يرفع الستر حتى أدناه منه[23] .

كما أَمَّ بلاط الملك عمرو بن هند ، عمرو بن كلثوم ، واستجار به الشاعر عمرو بن قميئة لما هَمَّ به عمه مرثد بن سعد بن مالك في قصته المشهورة مع زوجه[24] ، و كذلك وفد عليه عمرو بن ملقط و غيرهم كثير[25] .

أما الوفود فهي كثيرة ، كانت تأتي الملك في قضاء حوائجها، و الطلب إليه النظر في شؤون قبائلها، و فك أسرى أبنائها ، فيكرمها الملك، و يحبوها، و يقضي حوائجها ، فقد وفد عليه حاتم الطائي و أوس بن حارثة بن لأْم الطَّائي، الذي كان سيداً مطاعاً في قومه، و جواداً مقداماً في أهله[26] ، وروي أن أبا سفيان بن حرب قدم عليه فوجد عنده مسافر بن عمرو بن أمية القرشي، و هو في قبة من أدم حمراء، أمر الملك بضربها إكراماً له[27]، كما وفد عليه ذو يزن من اليمن، الذي قدم عليه في الحيرة، و سأله أن يكتب إلى كسرى كتاباً، يعلمه فيه بمحله و شرفه و حاجته ، فاستنفره على الحبشة و أطمعه في اليمن و كثرة خيراتها[28]، و كان الملك قد اتخذ زرارة بن عُدَس كالوزير له[29]، و ثمة وفود أخرى كانت تأتيه لا مجال لذكرها هنا.

و قد كانت الحيرة إلى جانب كونها حاضرة المناذرة السياسية ، و عاصمتهم الثقافية التي يؤمها الشعراء و الخطباء ، كانت تقام فيها سوق تجتمع إليها العرب كل سنة[30]، وتأتيها التجار من كل مكان، و لعل من أشهر من قصدها من العرب الحكم بن أبي العاص بن أمية ابن عبد شمس[31].

و قد حظي الشعراء باهتمام الملك عمرو بن هند و رعايته ، و أولاهم جلّ اهتمامه وعنايته، فهو محبّ للشعر و الشعراء ، و الخطب و الخطباء ، و كان في مدة حكمه التي بلغت ست عشرة سنة خير راعٍ للشعراء[32] . على أنه ليس الغاية من هذه الدراسة ـ كما أسلفت ـ أن تؤرخ للملك، أو أن تدرس الحيرة في زمانه ، و إنما الغاية منها منصرفة إلى بيان صلة شعراء

العصر الجاهلي به وببلاطه، و بيان الصورة التي رسمها هؤلاء الشعراء لشخصية عمرو بن هند في مدحهم له و هجائهم إياه، و أخيراً في تحريضهم عليه وتهديدهم له.

أولاً : المدح :

رسم شعراء العصر الجاهلي للملك عمرو بن هند في شعر المدح صورةً مشرقةً، و أبرزوا له شخصيةً طيبةً ، فهو يظهر فيها ملكاً جواداً، كريم النسب ، عريق الأصل، ينتمي من جهة أمه إلى جده الأعلى الملك الكندي حجر آكل المُرار، وإلى أبيه الملك المنذر بن ماء السماء فهو سليل ملوك، وحسيب سادة عظماء، و لذا فإون دمه خالص النقاء، يشفي من داء الكَلَب، يقول المثقب العبدي في قصيدته التي مطلعها[33]:

هَلْ لِهذا القلبِ سَمْعٌ أو بَصَرْ أوتَنَاهٍ عن حَبيبٍ يُدَّكَر

يقول:

و إلى عَمْروٍ ، و إن لم آته تُجْلَبُ المدْحَةُ أو يمضي السَّفَرْ
واضح الوجه ، كريم نَجْرُهُ ملك السِّيفِ إلى بَطْنِ العُشَرْ
حُجُريٍّ عائديٍّ نَسَباً ثم للمنذرِ إذ جَلَّى الخَمَرْ
باحِريِّ الدَّم ، مُرٌّ طَعْمُهُ يُبْرىء الكلب إذا عَضَّ وَ هَرْ

فالملك عريق النسب ينتمي إلى عاد، كريم الحسب، و ضاء المحيا، واسع الملك عظيم السلطان، تشد إليه الرحال، و تقصده الشعراء وتأتيه المدائح، ولهذا فالشاعر لا يكفر نعمته، ولا يجحد فضله، و إنما يدعو له بالخير كفاء صنيعه، وجزاء نعمه:

فجزاهُ اللهُ من ذِي نعْمَةٍ و جزاهُ اللهُ إن عَبْد كَفَرْ

و يرسم المزق العبدي للملك عمرو بن هند صورةً طيبةً ، ينعته فيها بالسخاء والكرم، ويصفه بالشجاعة والحكمة، وأنه و أسرته قد بذوا الملوك وتفوقوا عليهم جميعاً، والشاعر من خلال ذلك يقدم ولاءه المطلق و طاعته التامة، ويبرأ في الوقت نفسه من أفعال بعض أفراد قبيلته " عبد القيس"، و يتمنى على الملك الحليم ألاّ يأخذه بجرائمهم، ولا يعاقبه بسوء صنائعهم، وأن يعفو عن زلاتهم، و يغفر سوء أفعالهم، و إن كان لا بد من تأديبهم و الأخذ على أيديهم، فليقم الملك نفسه بذلك، ولا يكل الأمر إلى ابن فَرْتَنى ،الذي يبدو أن الشاعر كان يرى عنده شهوة الانتقام وحب سفك الدماء ، يقول الشاعر[34]: